مجلة قطوف الهند
المجلد: ٢ العدد: ٣ و٤

قصة قصيرة

وجع لا يبارح الذاكرة

لبنى ياسين ❖

منذُ فتحَ عينيهِ على الدنيا، وهو مولعٌ بالألوان، كل ما يراه في الدنيا ألوان، اللونُ شغفه، يكاد ينحصر عالمه بين اللون والضوء والشكل، لم تكنْ لديه ميول الصبية الآخرين إلى لعبِ الكرة، هادئٌ هو، قليلُ الكلام، يراقبُ الأشياء بعينيه البنيتين الواسعتين بشغف، يسجلُ على أروقة الذاكرة ملاحظاته الصغيرة، ويركض إلى عالمه ليشكّلها باللون على الورق، كأنما هو يحبس الحياة في لوحاته، يخبئ حزنه وأحلامه في زوايا ورقة، ويختبئ بطبعه الخجول وراء تراتيل لونه.

شغفه الآخر كان زيارة المتحف، داومَ على زيارة المتحف حتى اعتادَ على وجوده الحارس العجوز، ولم يعدْ يطلبُ منه رسم الدخول، من يستطيع أنْ يجبرَ طفلاً مولعاً بارتياد المتحف على دفع رسم الدخول من مصروف جيبه الخاص؟

ذات يومٍ وبينما هو يشاهد برنامج محلي عن الأطفال الموهوبين، عنتْ على باله فكرة، فجمع بعض رسومه، ووضعها بحرصٍ شديد، وباتقانٍ كان يمتلكه فطرياً في مظروفٍ بريدي يتناسبُ وحجم لوحاته، وكتبَ عنوان البرنامج، وأرسلها بالبريد.

بقي طيلة الأسبوع في حالة ترقب ، ينتظرُ موعد البرنامج، يريد أن يتأكدَ أن لوحاته وصلت، وأنها كانتْ موضع احتفاء..كما هي في قلبه وعينيه، وما أنْ حانَ موعد البرنامج، حتى تدافع الدم في جسده الصغير، وبدأ قلبه يدق بقوةٍ، ولم يخبْ ظنه، فقد حملتْ المذيعة رسومه، وعرضتها على الشاشة، وهي

❖ كاتبة وأديبة.

تثني على اليد الصغيرة التي رسمتها، وأنهتْ الأمر بدعوة الصغير إلى البرنامج، ليكون ضيف الحلقة القادمة.

لم تسعهُ الفرحة، قفز من مكانه فرحاً، نعم لوحاته وجدت التقدير اللازم لها، هو يعلم في داخله أنه ما خُلق إلا ليكون فناناً، هو يدركُ أنه فنان، لكنه أصغرَ من أن يرسمَ بريشته مساره الخاص، أصغر من أن يكون لتوقيعه هيبة فنان تشكيلي.

اتجه إلى والده وأخبره بالدعوة الموجهة له، فرحَ الأبُ كثيراً بالخبر، لكن ذلك لم يبدُ واضحاً على محياه، كان فخوراً بابنه، لكنه لم يقلْ ذلك، فالأب أورثَ ابنه بعض صفاته، كلاهما يحب بصمتٍ، ويفرح بصمتٍ، ويتألم بصمتٍ، لذلك اكتفى بابتسامةٍ مهيبة، وسألَ ابنه على الفور عما قد يحتاجه لأجل اللقاء، فأجاب الطفل:

ألوان وأوراق رسم، وبدلة رسمية أذهب بها إلى اللقاء.

ابتسم الأب، واكتفى باحضار الألوان والأوراق المطلوبة، أما البدلة، فقد أخبر ابنه إنهم يريدون استضافة لوحاته، وبامكانه أن يذهب بثيابه المعتادة، وأنه ليس من المعتاد ارتداء طفل في سنه لبدلة رسمية .

لم يكن سهلاً على الفنان الصغير أن يتخلى عن فكرته، ليس فقط لأنه عنيد، بل لأنه كلما شاهد التلفاز، وجد رجلاً يرتدي البدلة الرسمية وربطة العنق، لن يذهب إلا ببدلة رسمية..حسم أمره ..عليه أن يتدبر أمر تلك البدلة بطريقة ما.

بعد تفكيرٍ تذكر الصغير أن عمه الذي تزوج منذ أسابيع، كان يرتدي بدلةً أنيقة، ستبدو لائقةً في لقائه الأول على الهواء، حيث سيتعرفُ العالم عليه من خلفِ شاشة، فذهب إلى عمه، وشرح له الأمر، عجز العم عن اقناعِ الفنان الصغير بأن البدلة أكبر من مقاسه وعمره معاً، وأن عليه أن يذهب بثيابه

المعتادة، ووصلا أخيراً إلى تسوية أراحتهما معاً، سيكتفي العم بإعارة الجاكيت إلى ابن أخيه، وسيرتدي الصغير بنطاله، مع ذلك الجاكيت.

ركضَ الطفل فرحاً ..سيكون بأناقة بقية الرجال، حسناً دون ربطة عنق، وماذا في ذلك؟ هو أصغر منهم على أية حال، وما أن وصل المنزل حتى وضع الجاكيت، وجلب المكواة لكي يجعله بهيئته المشتهاة، وما أن وضع المكواة على صدر الجاكيت، حتى التهمتْ بحرارتها جزءاً يتناسبُ وحجمها من القماش، فخرجت من تحتهِ البطانة البيضاء فاضحةً أمر الحادثِ المزعج، لم يثنِ الحرق همة صغيرنا، فاتجه إلى الأصباغ التي جلبها والده لجدران المنزل، وبدأ يركّب خلطته الخاصة، حتى استطاع أن يصلَ إلى لونٍ مطابقٍ للون الجاكيت، فصبغ مكان الحرق بها، لتعودَ بلونٍ واحد، ونام قريراً بأناقته، ولوحاته.

في اليوم الموعود، استحمَ كعادته، مشطَ شعره، بقي لوقتٍ طويل أمام المرآة، إنه لقائه الأول بالعالم، واعتراف العالم به كفنانٍ صغير، يستحقُ هذا اليوم كل عنائه لأجل مظهر مميز، ارتدى ثيابه، وأخيراً لبس الجاكيت، وخرج متجهاً إلى الاستديو، ورغم أن الحرَّ كان شديداً، وأن الشمس كانت تسكبُ غيها فوق جسده، لم يخلع الجاكيت ولو للحظة، فقد كان فرحاً بمظهره الرجولي، هو ابن العاشرة النحيل، الذي لا يبدو عليه حتى عمره.

كانت المشاعر التي تخالجه كثيرة للغاية، أكثر من أنْ تستطيع الاجتماع في قلبِ طفل مثله، لكنه كان متجلداً، يخفي خوفه وفرحه خلفَ ملامح هادئة لا تفصحُ عن سرِّ صاحبها إلا لمن يعرفه جيداً.

أخيراً لاحَ المبنى له من بعيد، وبدأت خلجاته تضطربُ فعلاً، كل ما فيه يختلج، قلبه يزاحم نبضاته وخجله، لكنه بنفس الخطوات الواثقة، ظل يسرع الخطى نحو المبنى، مخفياً اضطراب دقات قلبه خلف ابتسامته البريئة.

وعندما دخل ذلك البناء المهيب، كان أول شيء أسعده هو التخلص من أشعة الشمس، وجد اسمه مسجلاً لدى موظف الاستقبال على الباب، مما أشعره بالفخر، وتابع باتجاه المبنى المخصص للبرنامج، بعد أن دلّه موظف الاستقبال على مكانه.

وما أن وصلَ هناك حتى رآه المخرج، الذي نظر إلى الطفل باستهجان، لم يعجبه منظر الجاكيت المحروق، والكبير على الطفل النحيل، فطلبَ منه المغادرة على الفور.

فوجئ الصغير بمحاولة المخرج لإبعاده، حاولَ جاهداً أن يبقى إلا أنه لم يعطهِ فرصة، اتجه إلى رجلٍ آخر كان يعملُ مذيعاً لبرنامج، أخبره بقصته، حاول الآخرُ التدخل إلا أن المخرج بقي مصراً على رأيه، فما كان من الرجلِ الآخر إلا أن أخذَ اللوحات من الطفل، واعداً إياه بأن يعطيها للمذيعة التي تقدم البرنامج.

عاد الطفل إلى منزله خائباً، ولم يطقْ أن يعلنَ عن خيبتهِ لأحد، فأخبر عائلته أنّ الاستضافة ليست للفنانين بل هي لبقية المواهب، أما من يرسم فهم يستضيفون لوحاته فقط..دونه، ويمّم تجاه غرفته، يبكي بصمتٍ حلمه الذي أهدرته ريحُ العنجهية..وعجزه عن التقاط ذلك الحلم.

وعندما جاء اليوم الذي يذاع فيه البرنامج، كان ينتظر بلوعةٍ لوحاته التي بقيتْ وحدها هناك، خرجت المذيعة لتستعرضَ اللوحات باعجابٍ شديد، ثم قالت: للأسف لم يتمكن الفنان الصغير من القدوم، لكنني على ثقةٍ بأننا سنفخرُ بفنانٍ كبير ناجح بعد عدة سنوات، وأن منجزاته ستغطي جدران الأرض بجمالها.

ابتسمَ الطفلُ بمرارة..فرغم ما حدثَ كان يدركُ في قلبه أنه سيفعل ذلك.

بعد سنوات صارَ ضيفاً في برامجَ كثيرة، بعد أن غطتْ لوحاته جدران المعارض والمتاحف، وانتقلت عبر أرجاءِ الأرض، ورغم ذلك في كل لقاءٍ كان يجريه، وفي لحظةٍ ما من هذا اللقاء، يخرجُ طفلٌ من أعماقه، طفلٌ ما زال يحسُ بخيبةِ فقدان أول أحلامه، ليتحدثَ عن تلك الحادثة، وترتسمُ تلك الابتسامة الطفولية على شفتيه، وتعجزُ الكاميرا الاحترافية لمصورِ اللقاءِ عن التقاطِ صورة دمعة في عين طفل أجهضَ رجل متغطرس أول أحلامه.